الفصل الثالث

النفس اللوامة

● **سر الاطمئنان :**

يبدو من الأقوال الواردة أثناء مناقشة طبيعة « النفس المطمئنة » ـ فى الفصل الأول ـ وتحليل أوصافها العميقة وخباياها الدقيقة ، أنها نفس بلغت قمة الرضا والأمان لأنها اعتصمت بالله من كل افتتان ، وصارت فوق الأحداث بما آتاها الله من حكمة فى التماس الحكمة الالهية فى الأحداث .. فكفت هذه النفس عن لهو الحديث ، وانشغلت بالأعمال الصالحة عن فضول القول وسفسطة الحديث وعن محقرات الأعمال .

وأصحاب هذه النفس قد رضوا بما قسم الله لهم من حظوظ العيش، فلم يشغلهم فى هذه العاجلة ما شغل غيرهم من الجرى وراء الأطماع ، والتكالب على حطام الحياة الفانى ، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .. تراهم قد رضوا بقضاء الله ، وأوصلهم اليقين الى الاطمئنان بما عند الله ، فسكنوا الى راحة الايمان ، واطمأنوا فى واحة الايمان ، بعيدا عن وساوس الشيطان [1] .

واذا رجعنا الى قول الحق تبارك وتعالى :

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » . (الفجر : ٢٧ ـ ٣٠)

نجد أن هذه الآيات الكريمة قد أعطت للنفس المطمئنة أوصافا أربعة [2] :

---

(١) ابراهيم محمد سرسيق ، **النفس الانسانية فى القرآن الكريم** ، جدة : دار تهامة للنشر ، ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٥ ـ ٧٧ .

١ ــ **أنها راضية :** راضية بما أنعم الله به عليها من خير عميم وفضل عظيم .. حيث أحسن ختامها ، وأجزل ثوابها ، وشرفها وكرمها بتوجيه النداء اليها .

٢ ــ **أنها مرضية :** أى أنها فازت برضاء الله تعالى عنها ، حيث أخلصت فى طاعته وتوحيده . ورضاء الله تعالى هو الغاية العظمى التى ليس فوقها غاية ، بل ان رضاء الله تعالى مقام عظيم أغلى مما أوتوا من نعيم مقيم . وقد صرح القرآن الكريم فى موضع آخر ، أن هذا المقام لا يبلغه الا من خشى ربه ، فقال فى ختام سورة « البينة » :

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

(البينة : ٨)

٣ ــ **أنها داخلة فى زمرة عباد الله الصالحين :** وهذا تكريم آخر للنفس المطمئنة بوضعها بين أشباهها ونظائرها ، وادخالها فى جملة من أخلصوا العبادة لله تعالى معها ، وهو تكريم متعدد ومتجدد :

ــ فأما تعدده ، فلأنه بكثرة الجماعة وتعدد أفرادها يرتفع مقدارها فى موازين التكريم ــ فكيف اذا كان أساس التجمع هو الجلوس على بساط العبودية تحت مظلة الكرم الالهى وحول موائد الفضل والجود من الاله المعبود ؟

وأما تجدده ، فلأنه كلما استحقت نفس أن تنعم بساحة الاطمئنان نوديت هذا النداء العظيم بدخولها فى زمرة عباد الله الصالحين .. فيكون فى ذلك تكريم للخصائص التى اجتمعت عليها تلك النفوس المطمئنة ، وأحبب بها من خصائص طيبة فى الاعتقاد وفى التعبد . وهذا المعنى تؤكده آية كريمة أخرى من القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » .

(العنكبوت : ٩)

٤ ــ **أنها من أهل الجنة** : وذلك فى جملة تكريم الله تعالى للنفس المطمئنة • وقال « القرطبى » فى تفسيره[٣] : « والصحيح أنها عامة فى كل نفس مؤمن مخلص طائع • قال الحسن البصرى : ان الله تعالى اذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن ، اطمأنت النفس الى الله تعالى واطمأن الله اليها • وقال عمرو بن العاص : اذا توفى المؤمن أرسل الله اليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : اخرجى أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية ومرضيا عنك ، اخرجى الى روح وريحان ، ورب راض غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض » ••

وبعد هذه الأوصاف الأربعة الرائعة ، نأتى الى نص نبوى شريف ، يوضح الخصائص الأساسية للنفس المطمئنة : فقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل اللهم انى أسألك نفسا بك مطمئنة •• تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » [٤] •

ــ فالايمان بلقاء الله تعالى ــ والمقصود به الايمان بالبعث ــ هو أهم ما يبعث الخشية فى قلب المؤمن •

ــ والرضا بالقضاء : هو مفتاح الصلة الحسنة بين العبد والرب ، ودليل التسليم المطلق لله ، واسقاط التدبير مع الله •

ــ والقناعة بالعطاء : هى مبعث الراحة النفسية للمؤمن ، وأساس التعايش السلمى مع سائر البشر ، دون تطلع الى ما فى أيديهم ، ودون حقد عليهم •

ويستفاد من مختلف الأقوال الواردة عن العلماء أن النفس المطمئنة تستمد اطمئنانها من نواح عديدة :

١ ــ تستمد اطمئنانها من رضاء الله تعالى عنها ، ورضاء الله تعالى غاية الغايات •

---

(٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٠٦٧ ، ٢٠ : ٥٨ ..

(٤) الحافظ ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ٤ : ٥١١ .

٢ ــ تستمد اطمئنانها من وعد الله تعالى لها بالثواب وهــو النعيم السرمدى : **« فادخلى فى عبادى • وادخلى جنتى »** •

فهى مطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت ، وعند البعث ، ويوم الجمـــع •

٣ ــ تستمد اطمئنانها من توحيد الله تعالى وحده لا شريك له ، وافراده وحده بالعبادة • فان الله سبحانه قد وعد وهو أصدق من وعد ، فقـــال : **«الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتـــدون »** • (الأنعام : ٨٢)

ففى الآية الكريمة قصر الأمن على الموحدين ، وهو قصر طريقه التقديم ، فلا أمن الا لهم ، ولا اطمئنان الا لنفوسهم •

٤ ــ تستمد اطمئنانها من ذكر الله تبارك تعالى :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » • (الرعـــد : ٢٨)

فذكر الله تعالى يرث الاطمئنان فى القلوب ، نتيجة التسليم والركون لعلام الغيوب •

وبعد •• فاننا نجد ملامح الاطمئنان فى النفس البشرية متمثلا فى النفوس الآتية :

١ ــ النفس اللوامة •• المهتدية •• الصالحة ••

٢ ــ النفس البارة •• الخيرة • الشاكرة ••

٣ ــ النفس العادلة •• الأمينة •• الوفية ••

وهذا ما نناقشه فى هذا الفصل والفصول التالية ••

* * *

ملامح النفس اللوامـــــة

* **« لا أقسم بيوم القيامة • ولا أقسم بالنفس اللوامة »** •
(القيـــامة : ١ ــ ٢)

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القســـم المباشر ، وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذى يتكرر فى مواضع مختلفة من القرآن •• ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة •

فأما النفس اللوامة ففى التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها •• فعن الحسن البصرى : ان المؤمن والله ما تراه الا يلوم نفسه •• ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وان الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه •• وعن الحسن البصرى : ليس أحد من أهـــل السموات والأرض الا يلوم نفسه يوم القيامة •• وعن عكرمة : تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا ! • وعن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه •• وقال جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات •

ونحن نختار فى معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصرى : « ان المؤمن والله ما تراه يلوم الا نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ، ما أردت بحديث نفسى ؟ وان الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفســـه » •• فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجســـة التى تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هى النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع القيامة • ثم هـــى الصورة المقابلة للنفس الفاجرة •• نفس الانسان الذى يريد أن يفجر ويمضى قدما فى الفجور ، والذى يكذب ويتولى ويذهب الى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرج ولا مبالاة ! [٥] •

---

(٥) سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** • ج ٦ ، ص ٣٧٦٨ •

اللوامة : صيغة مبالغة من اللوم ، وهو شدة التعنيف والمؤاخذة • فاللوامة كثيرة التعنيف لصاحبها ، وهذا اللوم الواقع من النفس اللوامة لصاحبها يتجه فى طريقين [٦] :

١ ــ محاسبة صاحبها على وقوعه أو ارتكابه للعمل السيء ، كاقترافه معصية من المعاصى ، أو توجهه بالأذى لمن لا يستحقه ، أو عقابه على الشر بأكثر من المثل • وهى بهذا اللوم الدائب توقظ فى صاحبها روح التوبة ، وتحمله على الرجوع عن غير سبيل المؤمنين ، والاتجاه الى الله تعالى لاصلاح ما فات ، وطلب العفو عما اقترف من سيئات •

٢ ــ محاسبة صاحبها على التقصير فى العمل الصالح ، وهذه المحاسبة ذات شقين :

(ا) محاسبة على التقصير فى أصل العمل الصالح •• كترك التصدق على مسكين ، أو اهمال العطف على يتيم ، أو القعود عن نجدة مستغيث • وهى بلومها على التقصير فى أصل الفعل النبيل انما تحول مجرى السلوك الى سلوك آخر أفضل منه ، وتستحثه بقوة واستمرار على المثابرة فى الطاعة ، والمسارعة الى فعل الخير •

(ب) محاسبة على التقصير فى الاستكثار من فعل الخير •• مثل لومها على التصدق بمبلغ صغير ، ولومها على اطعام فقير لا فقيرين أو أكثر ، ولومها على استضافة شخص مدة يسيرة لا كبيرة •• وهكذا •

* * *

● **هل « اللوامة » صفة ذم ؟ :**

هناك رأى يقول بأن « اللوامة » صفة ذم لا مدح •

وينسب هذا الرأى الى قتادة وابن عباس رضى الله عنهم ، وأورده الشوكانى فى تفسيره بصيغة التضعيف • وأساس هذا الرأى يقول ان اللوم من التلوم ، وهو التردد ، لأنها لا تستقر على حال واحدة ، أو أن اللوامة بمعنى الملومة •

---

(٦) ابراهيم محمد سرسيق ، **النفس الانسانية فى القرآن الكريم** . ص ٦١ ــ ٦٢ •

وهذا الرأى يفتح فى القضية منافذ جديدة مفيدة .. ذلك أن الامام ابن القيم قد توسط فى الأمر ، فلم يعتبر النفس اللوامة ممدوحة على الدوام أو مذمومة على الدوام ، وانما نظر اليها من ناحية ما تلوم عليه ، فان لامت على الخير فهى مذمومة وان لامت على الشر فهى محمودة[٧] .

اذن فهى النفس المترددة بين الخير والشر .. نفس واعية لكيفية الاختيار بين هذا وذاك . نفس فى منزلة وسطى بين الأمارة بالسوء التى اختارت السير فى طريق الخطأ ، والتخبط فى الظلام ، والتردى فى الاثم ، ومواجهة عواقب الضرر والضرار .. وبين النفس المطمئنة التى هى أعلى مراتب النفس ، وعندها السكون والطمأنينة . ويتفق هذا الرأى مع ما ذكره الشوكانى :

« ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهى تلوم نفسها .. ان كانت عملت خيرا قالت : هلا ازددت ؟ وان عملت سوءاً قالت : ليتنى لم أفعل » [٨] .

أما التعبير بالالهام فى مقام الاختيار كما نقرأ فى قوله تعالى :

« فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨)

فالمراد به أن هذا الاختيار يتم بارادة الله سبحانه وتعالى ، مع تهيئة منه للعبد فيما يختار . فالله سبحانه يهيىء النفس لما خلقت له ، والاختيار والكسب للعبد فيما يختار . وفى مسند الامام أحمد رضى الله عنه ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« ما من خارج يخرج الا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فان خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع الى بيته ــ وان خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع الى بيته » .

---

(٧) ابن قيم الجوزية ، **اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** . (القاهرة . مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٨١ هـ) ، ١ : ٩٤ .

(٨) محمد بن على الشوكانى ، **فتح القدير ، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير** . (القاهرة . مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٨٣ هـ .) ، ٥ : ٢٣٥ .

ويصف بعض الباحثين النفس اللوامة « بالملهمة » ، ويقصد بذلك أنها ألهمت الخير والشر ، وأنها تدور فى الاختيار بينهما حسب مواقف الحياة المختلفة ، وحسب ما يعتورها من نوازع الهدى والضلال ، وطبقا لما يجتذبها من تيارات الرغبة أو الرهبة • وهذا تأويل آيات عديدة فى القرآن الكريم ، متضمنة كلها لهذا المعنى :

« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها » • (الشمس : ٧ ــ ١٠)

فيذكر الخالق سبحانه وتعالى أنه قد سوى هذه النفس ، أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة الأصيلة القويمة ، كما جاء فى الحديث المتفق عليه من رواية أبى هريرة رضى الله عنه : « كل مولود يولد على الفطرة • فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه • كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ــ سليمة الأعضاء ــ هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ــ مقطوعة الأنف والأذن والشفة ــ » •

وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : انى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » [٩] • ــ الحنفاء : المائلين عن الضلال المتجهين الى الحق ــ •

ان الانسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه • ونعنى بكلمة مزدوج أنه بطبيعته مزود باستعدادات للخير والشر ، والهدى والضلال •• فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه الى الخير والى الشر سواء • وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن الكريم بالالهام تارة : **« ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها »** ، ويعبر عنها بالهداية تارة أ **« وهديناه النجدين »** (البلد : ١٠) •• فهى كامنة فى تصميمه فى صورة استعداد • والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية انما

---

(٩) ابراهيم محمد سرسيق ، **النفس الانسانية فى القرآن الكريم** • ص ٦٥ ــ ٦٦ •

توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها ، ولكنها لا تخلقها خلقا •• لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة الهاما •

وهناك الى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قـوة واعيـة مدركة موجهة فى ذات الانسان ، هى التى تناط بها التبعة • فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر ، فقد أفلح • ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفهـا فقد خاب : « **قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها** »(١٠) •

* * *

● **أثر النفس اللوامة فى لوم الآخرين :**

قد يكون للنفس اللوامة أثر ملموس فى لوم الآخرين على ما فعلوا من خير أو شر ، ولكن بطريق غير مباشر • ذلك أن النفس اللوامة ليست جوهرا متميزا بذاته عن الجسد ، وليس لها تكوين مادى •• ومن ثـم فهى لا تستطيع أن تنتقل الى ذوات الآخـرين لكى تلومهم أو توجـه النصح اليهم • وهى ليست بذات لسان حتى تتوجه بالخطاب الى هـذا أو ذاك من عباد الله •

وانما يحدث هذا التأثير من النفس اللوامة بطريقة أخـرى •• فهى تحض صاحبها الى دعوة الآخرين الى شىء محدد يؤثر فيهم من ناحية معينة من نواحى الحياة ، فيكون فى ذلك تأثيرها غير المباشر وغير المحدود اذا استجاب لها صاحبها فى غيرها من النفوس •

وهذه الظاهرة يعرفها علم النفس « بظاهرة الايحاء » • وكثيرا ما تكون هذه الظاهرة سببا فى تعديل السلوك ، وتغيـير الأفـكار والاتجاهات والاهتمامات لدى الكثير من الناس ، ممن لهم قابلية لهذا الاستهواء بطريقة تلقائية •

فاذا كان للنفس اللوامة أثر فى زجر الآخرين عن الشر ، ودعوتهم

---

(١٠) سـيد قطب ، **فى ظلال القرآن** • جـ ٦ ، ص ٣٩١٧ •

الى الخير ، فانها تنتقل بصاحبها انتقالة مفيدة من مرتبة الصلاح الى مرتبة الاصلاح ، وتلك أسمى الغايات في طريق الدعوة الى الله عز وجل. فالصلاح وحده ــ صلاح النفس وتزكيتها بالفضائل وتطهيرها من الرذائل ــ وان كان طيبا مستحبا نافعا للنفس ، فانه لا يتحقق به هدف الدعوة المحمدية . انما يتحقق هدف هذه الدعوة النبيلة بانتقال شحنة الصلاح الى نفوس الآخرين .. بأن يتحول الصالحون الى مصلحين .. بأن يكون الاصلاح طريقنا الى الخلاص والنجاة :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

(هود : ١١٧)

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » . (هود : ٨٨)

* * *

● **مفاهيـــــم نفســـــية :**

ورد فى سياق الحديث عن ملامح النفس اللوامة عدة مصطلحات ومفاهيم نفسية هى :

١ ــ الســـــلوك .

٢ ــ الدوافـــــع .

٣ ــ الاستبصار والالهـام .

٤ ــ الادراك .

٥ ــ محاسبة النفس .

وسنناقش فيما يلى هذه المفاهيم باختصار :

● **أولا ــ الســـــلوك :**

من الدراسات السلوكية تتضح حقيقة هامة تلقى الضوء على مفهوم السلوك الانسانى وتفسيره .. وهى تتركز فى أن الانسان يمثل نظاما

متكاملا ، تتكون منه أجهزة متعددة يختص كل منها بأداء وظيفة محددة. ولذلك فان السبيل العلمى لفهم السلوك وتفسيره هو عن طريق النظر الى جوانبه المختلفة فى آن واحد ، وعدم الاقتصار على دراسة بعض جوانبه دون الأخرى . ولقد اتضح من الدراسات السلوكية أن الانسان له دوافع متعددة ومعقدة ، وعلى الرغم من وجود بعض الصفات المتماثلة فيما بين الأفراد الا أن هناك جانبا أساسيا من الفروق الفردية بينهم . وعلى هذا فاننا لا نتوقع أن يتصرف كل الأفراد بنفس السلوك استجابة لمؤثر أو مثير معين . ولذلك فان الأساس الأول لفهم السلوك البشرى هو تحليل ذلك السلوك لمعرفة الدافع أو الباعث عليه . ومن ناحية أخرى ، فالانسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره من الأفراد ، لذلك كان من الضرورى أن نأخذ الجوانب الاجتماعية فى الاعتبار عند تحليل سلوك الفرد[١١] .

ونتيجة للبحوث فى مجال ديناميكية السلوك نفترض ما يأتى :

١ ــ السلوك الانسانى سلوك هادف ، فلكل سلوك هدف يسعى الفرد الى تحقيقه ، وتحدد الحاجات الأساسية ــ البيولوجية والنفسية والاجتماعية ــ للفرد هذا الهدف .

٢ ــ السلوك الانسانى سلوك مسبب ، فلا يوجد سلوك دون سبب. وقد يكون السبب ظاهرا واضحا أو مختفيا كامنا .

٣ ــ السلوك الانسانى متعدد الأسباب ، فالحاجات الأساسية للانسان تتفاعل باستمرار داخل الفرد الذى يحاول أن يشبع بسلوكه أكبر عدد ممكن من حاجاته .

٤ ــ كثيرا ما يقوم اللاشعور بدور هام فى تحديد سلوك الانسان. وعموما فان الفرد لا يستطيع لأول وهلة تحديد الأسباب المتعددة لسلوكه.

٥ ــ السلوك الانسانى عملية مستمرة ، فليست هناك فواصل

---

(١١) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** . (القاهرة : العالمية للنشر ، ١٩٧٨) . ص ٢٤ .

قاطعة تحدد بدء كل سلوك ونهايته • فكل سلوك جزء من سلسلة متكاملة مستمرة ومتغيرة تندمج حلقاتها باستمرار •

٦ ــ الانسان عضو فى مجتمع كبير ، فهو يتأثر بطبيعة الثقافة والحضارة التى يعيش فيها ، ويصبح لتلك القوى الاجتماعية تأثير شديد على أساليب وأنماط السلوك التى يتبعها •

٧ ــ لكل فرد « شخصية متميزة » تختلف عنها فى غيره من الأشخاص ، وتلك الشخصية هى نتاج التفاعل بين حاجات الفرد ورغباته وخبراته والبيئة التى يعيش فيها •• فقد يكون الفرد قلقا غير مستقر ، أو قد يكون طابع شخصيته التسلط أو العدوان ، أو قد يصبح انطوائيا سلبيا • ويحدد ذلك النوع من الشخصية بعض أنماط السلوك الانسانى ويساعد على تفسير تصرفات الفرد (١٢) •

ويبدو « الغزالى » باحثا فى علم النفس ــ وفى السلوك خاصة ــ بصورة تجعله متقدما على الكثيرين ممن درسوا السلوك من علماء النفس • وهو غالبا ما يسلك فى دراسة ظواهر السلوك سبيل الحياد ، فيتناولها من حيث ذاتها أولا ، معرفا لها ، مبينا ماهيتها ، مقارنا بينها وبين الظواهر الأخرى ليصل بعد ذلك الى اصدار حكم عليها ، ورسم طريقة العلاج النفسى •

وبالاضافة الى عناية الغزالى بالسلوك من حيث كونه موجها لغاية دينية انسانية ، فانه يساير روح الاسلام التى تنظر الى الانسان كشخصية متكاملة ، يجمع نشاطها بين العبادة الدينية الخالصة والعمل الدنيوى ، حين يكون هذا العمل قائما على أساس معقول من المصلحة الفردية أو العامة والسمو الانسانى •

ولقد ميز الغزالى بين ثلاثة أنواع من السلوك :

١ ــ **الفعل الطبيعى** : وهو مجرد التغيير الميكانيكى ، وذلك كانخراق الماء اذا وقف الانسان عليه بجسمه •

---

(١٢) سيد عبد الحميد مرسى ، **علم النفس والكفاية الانتاجية** (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨١) ، ص ٦٧٩ ــ ٦٨٠ •

٢ ــ **الفعل الضرورى :** وهو التغيير البيولوجى والآلى ، وذلك كالتنفس ، وهو يعطى هذا الفعل أحيانا الصفة الارادية ، ولكنه ينزعها عنه غالبا فيبين أنه فى الواقع ليس الا سلوكا آليا لا ارادة فيه ولا عقل .

٣ ــ **السلوك العقلى الارادى :** وذلك كالكتابة والمشى والكلام أو النطق .

ويلاحظ أن الانسان لا يختلف كثيرا عن الحيوان فى السلوك الآلى، بينما يتميز عنه بالسلوك الارادى .

ومن هذه الأمثلة يبدو واضحا الفرق بن حركة الجماد ، والفعل الاضطرارى ، وسلوك الكائن الحى وبخاصة الانسان ، من حيث تلقائيته ، وكونه نتيجة كمثيرات ــ منبهات ــ داخلية وخارجية ، وباعتباره سلوكا متغيرا متنوعا قابلا للتحسن ، ويستهدف تحقيق غرض معين ، وفقا لحاجات مختلفة [١٣] .

* * *

● **تعديل السلوك :**

ان التخلص من بعض عاداتنا السيئة التى ظللنا نمارسها فترة طويلة بحيث أصبحت ثابتة ومستقرة فى سلوكنا ليس بالأمر الهين بالنسبة لكثير من الناس ، حيث ان ذلك يحتاج الى ارادة قوية ، وجهد كبير ، وتدريب متواصل ، مما قد لا يطيقه كثير من الناس . ولذلك فان أفضل طريقة يمكن أن نتبعها للتخلص من عاداتنا السيئة المستحكمة هى أن نعمل على التحرر منها تدريجيا .

ان أفضل طريقة للتخلص من انفعال ما ، كانفعال الخوف مثلا ، هى أن نقوم تدريجيا باحلال انفعال معارض لانفعال الخوف ــ كانفعال الحب أو السرور ، محل انفعال الخوف حتى نصل فى النهاية الى التخلص النهائى من الخوف .

---

(١٣) عبد الكريم العثمان ، **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ٢ ، ١٩٨١) ص ١٦٧ ــ ١٧٠ .

وقد أوضحت بعض التجارب التى قام بها بعض علماء النفس المحدثين أنه أمكن بهذه الطريقة تخليص الطفل من خوفه من حيوان ما ، وتعليمه حب هذا الحيوان بدلا من الخوف منه [١٤] .

ولقد اتبع القرآن الكريم فى علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة طريقة التكوين التدريجى لاستجابة معارضة للاستجابة المطلوب التخلص منها .. وخير مثال نسوقه فى هذا المضمار علاج مشكلة « شرب الخمر » .. فقد عمد القرآن فى مبدأ الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر وغرس كراهيتهم لها ، دون أن يقوم بتحريمها تحريما تاما ، ثم تدرج بهم حتى مرحلة التحريم التام لها . فكانت أول آية نزلت فى الخمر تشير الى أن مضارها أكبر من منافعها ، وفى هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث للامتناع عن شربها ، قال تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ... » (البقرة : ٢١٩)

ثم تدرج القرآن بعد ذلك الى درجة أشد حزما فى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وفى حثهم على الامتناع عنها ، حينما كان بعض المسلمين يذهبون الى الصلاة وهم سكارى فيخطئون فى قراءة القرآن ، فحرم عليهم القرآن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ... » (النساء : ٤٣)

ان الامتناع عن شرب الخمر خمس أوقات فى اليوم ـ هى أوقات الصلاة ـ نراها تشمل معظم ساعات اليوم تقريبا ، وكأنها بمثابة تدريب للمسلمين على الاقلاع عن شرب الخمر . وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسيا للانتقال الى المرحلة التالية وهى الامتناع نهائيا عن تعاطى الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التالية التى حرمت الخمر تحريما تاما :

---

(١٤) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** . (القاهرة،دار الشروق، ١٩٨٢) ، ص ١٧٠ .

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصـــدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » • (المائدة : ٩٠ ، ٩١)

ان هذا الأسلوب فى التدرج فى تحريم الخمر قام باضعاف حب المسلمين لها تدريجيا ، وأحل محل الحب استجابة معارضة له هى استجابة النفور والكره • وقد تمت هذه العملية تدريجيا حتى حققت الهدف المنشود منها بنجاح تام ••

هكذا كان أسلوب القرآن الكريم فى تعديل سلوك المسلمين على أحسن ما يتلاءم مع طبيعة البشر ، وقد سبق فى هذا ما يحاوله علمـــاء النفس المحدثين بمئات السنين ولم يأتوا بجديد فى هذا المضمار •

* * *

● **ثانيا ــ الدوافـــــع :**

تعتبر نظرية « مازلو » واحدة من أشهر النظريات فى دوافـــع الانسان ، وتقوم هذه النظرية على عدد من الافتراضات هى[١٥] :

١ ــ أن حاجات الانسان يمكن ترتيبها فى سلم هرمى حســـــب أهميتها بدءا من الحاجات الدنيا (البيولوجية) الى حاجات الأمن ثـــم الحاجات الاجتماعية / النفسية التى تنتهى بحاجة تحقيق الذات فى قمة هرم الحاجات ويعكس هذا السلم شدة الحاجة الى الاشباع ، ويشـــير الى أن الحاجة الأكثر الحاحا ستطغى على اهتمام الفرد ، وتقلل بذلك من اهتمامه بالحاجات الأخرى •

٢ ــ أن الانسان هلوع بطبيعته ، وعلى ذلك فان حاجاته لا تشبع حتى نهايتها على الوجه الأكمل ، فبمجرد أن يشبع احدى الحاجـــات الأساسية تقل شدة الحاحها وتظهر حاجة جديدة لتحل محلها • وهـــذه

(١٥) Maslow , A.; **Motivation and Personality** (New - York; Harper, 1954) .

العملية مستمرة الى ما لا نهاية ، وبالتالى يظل الانسان يسعى دائما لاشباع حاجاته •

٣ ــ بمجرد اشباع الفرد لاحدى حاجاته بشكل مناسب فان هذه الحاجة لن تؤثر على سلوكه ، ومن ثم لن تدفعه أو تحفزه • وعلى ذلك فانه يركز على اشباع حاجة أخرى فى مستوى أعلى من السلم الهرمى ، ولكنه قد يتحول الى اتجاه عكسى أيضا اذا تم تهديد احدى الحاجات الدنيا لديه • مثال ذلك الشخص الذى اعتاد أن ينام بانتظام بدرجة كافية ، فان النوم بالنسبة له ليس بالشىء المحفز ، ولكن اذا لم يكن هذا الشخص قد حصل على حاجته من النوم ــ حاجة بيولوجية ــ لبضعة أيام فان حاجاته العليا فى التنظيم الهرمى تكون عند حدها الأدنى ، ويصبح النوم هو الدافع الأساسى له •

٤ ــ أن الحاجات تعتمد بعضها على البعض الآخر ، وتتداخل فيما بينها • وأن اشباع حاجة معينة لا يجعلها تختفى تماما حين تظهر الأخرى ، وعلى ذلك فانه على الرغم من عدم اشباع بعض الحاجات ، فان هذا لا يعنى أنها قد اختفت أو سقطت نهائيا •

وتصنف الحاجات الأساسية للانسان الى :

١ ــ حاجات بيولوجية (فسيولوجية) أو أولية •

٢ ــ حاجات اجتماعية نفسية أو ثانوية •

ومن أمثلة الحاجات البيولوجية الجوع والعطش وما أشبه • وهذه الحاجات ضرورية لبقاء الانسان وحفظ النوع ، ولذا فهى شائعة بين جميع البشر ، ولكنها تظهر بدرجات متفاوتة • فالطفل مثلا يحتاج الى قدر من النوم أكثر من حاجة الشخص الراشد • وتتعدل هذه الحاجات البيولوجية عن طريق الخبرة والممارسة الاجتماعية ، مثال ذلك : تعديل وجبات الطعام أثناء الصيام الى وجبتين فقط مع تعديل مواعيدها [١٦] •

---

(١٦) سيد عبد الحميد مرسى ، **الارشاد النفسى والتوجيه التربوى والمهنى** • (القاهرة الخانجى ، ١٩٧٦) ، ص ٥٦ •

أما الحاجات الثانوية فانها أكثر غموضا من الأولية لأنها تمثل حاجات عقلية ومعنوية بدلا من الحاجات الوظيفية للجسم • وتنمو هذه الحاجات الثانوية وتتطور وفقا للنضج العقلى للشخص وخبراته • ومن أمثلة الحاجات الثانوية الانتماء ، والاعتراف والتقدير ، وتحقيق الذات • وتختلف الحاجات الثانوية وتتنوع من شخص الى آخر بدرجة تفوق تلك التى نراها فى الحاجات الأولية •

أطلقنا على الجوع اسم الدافع أو الحاجة ، وكان فى امكاننا أن نسميه حافزا أو باعثا أو محركا أو نزعة أو ميلا فطريا الخ • ومن الخير والمفيد أن نصطلح على مدلول هذه الألفاظ التى تشير الى عناصر ديناميكية أو محركة والى كل ما يتصل بالحياة الوجدانية من انفعالات وعواطف تزداد الحاحا كلما ابتعدنا عن دائرة الوصف الأدبى وقصدنا الى التفسير العلمى •

يطلق اسم « الدافع » Motive اصطلاحا على كل ما يدفع الى النشاط ، حركيا كان أو ذهنيا • ومن بين هذه الدوافع ما هو فطرى ومنها ما هو مكتسب • وعندما يكون الدافع فطريا يمر بفترة من الكمون قبل أن تتاح له التبأور — ولا يكون حينذاك خاضعا للتصرف الارادى مباشرة — فيسمى فى هذه الحالة « حافزا » Drive • فاذا صدر عن نشاط الدافع سلوك مقصور على الأعمال البيولوجية ، سمى الدافع « حاجة » Need كالجوع مثلا • واذا شمل السلوك دائرة الأعمال الاجتماعية سمى الدافع « ميلا » Tendency ، وفى هذه الحالة تكون طبيعة الدافع عضوية ونفسية معا ، مثل الميول الأنانية (حب الذات) • والميل فطرى ، فاذا تبأور فى الشعور وأصبح موضوعا للتصور الذهنى سمى « نزعة » Inclination ، ومعنى النزعة قريب من معنى « الرغبة » Desire ، ولكن النزعة تكون مصحوبة بعناصر تصورية ذهنية • واذا نمت النزعة وقويت واستقرت تحت تأثير التجارب الانفعالية وما يتبعها من تأملات وتفكير ، تحولت الى « عاطفة » Sentiment (١٧) •

(١٧) يوسف مراد ، **مبادىء علم النفس العام** • ص ٤٠ — ٤١ .

وهنـــاك فئة أخرى من الدوافع ، مصدرها خارجى لا داخلى ، كالأشـــياء التى من شأنها تنشيط الدافع الداخلى وارضائه ، أو بعض العوامل الاجتماعية التى توجه النشـــاط وتعدله ، وفى هـــذه الحالة يسمى الدافع « باعثا » Incentive •

* * *

● الدوافع الفسيولوجية :

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى الذى منح نعمة الوجود لكل مخلوق ، أن يودع فى مخلوقاته خصائصها التى تؤهلها لأداء الوظائف التى خلقها الله تعالى لها • ومن بين الخصائص الهامة التى أودعها الله تعالى فى طبيعة تكوين الحيوان والانسان « الدوافع الفسيولوجية » •

وتؤدى الوظائف الفسيولوجية جانبا هاما للحيوان والانسان ، فهى تقوم بتلبية حاجات البدن وتسد كل ما يطرأ عليه من نقص ، وتقاوم كل ما يطرأ عليـــه من خلل أو اضطراب أو فقدان الاتزان • فهى تعمل دائما على الاحتفـــاظ للجسم بقـــدر معين من الاتزان الحيوى Homeostasis اللازم لحفظ ذاته وبقائه • وقد أوضحت الدراسات الفسيولوجية وجود ميل طبيعى فى بدن الانســـان والحيوان الى الاحتفاظ بدرجة ثابتة من الاتزان ، بحيث اذا اختل هـــذا الاتزان انبعث دافع للقيام بنشاط توافقى مستهدفا اعادة الجسم الى حالته الســـابقة من الاتزان • وقد يتم هـــذا النشاط التوافقى على أســـاس فسيولوجى بحت لا ارادة للانســـان فيه ، كما يحدث مثلا حينما يتصبب الجسم عرقا فى درجـــة الحرارة العالية مما يؤدى الى خفض حرارة البدن نتيجة لتبخر العرق ، أو كما يحدث حينما تدمع العين اذا دخل جسم غريب تحت الجفن فتؤدى الدموع الى التخلص من هـــذا الجسم الغريب • وقد يتم هـــذا النشاط التوافقى بقيام الفرد بنشاط ارادى معين ، كأن يقوم مثلا بتناول الغذاء فى حالة الجوع أو شرب المـــاء فى حالة الظمأ[١٨] •

---

(١٨) محمد عثمان نجاتى ، **مرجع ســـابق** ، ص ٢٣ ـــ ٢٥ .

وفكرة « الاتزان » هذه التى كشف عنها العلماء حديثا ، قد وردت فى القرآن الكريم منـــذ أربعة عشر قرنا ، وذلك فى قوله تعالى :

« والأرض مددناها وألقينا فيهـــا رواسى وأنبتنا فيهـــا من كل شىء موزون » • (الحجر : ١٩)

« •• وخلق كل شىء فقدره تقديرا » • (الفرقان : ٢)

« •• وكل شىء عنده بمقدار » • (الرعد : ٨)

« انا كل شىء خلقناه بقدر » • (القمر : ٤٩)

فكل كائن حى مخلوق بطريقة معينة وبدقة مقدرة بحيث يكون على درجـــة معينة من الاتزان • فاذا اختل هـــذا الاتزان تنبعث الدوافع الفسيولوجية التى تدفع الانســـان ــ وغيره من الكائنات ــ الى القيام بأنواع النشاط اللازم لاعادة البدن الى حالته الســـابقة من الاتزان •

وقد أشـــار القرآن الكريم الى هـــذه الدوافع الفسيولوجية الهامة ، والتى نلخصها فيما يلى[١٩] :

١ ــ دوافع حفظ الذات :

ذكر الله ســـبحانه وتعالى فى بعض آيات القرآن الكـــريم أهم الدوافع الفسيولوجية التى تقوم بحفظ الذات وبقاء الفرد مثل : الجوع ، والعطش ، والتعب ، والتنفس ، والألم ••

لقد خاطب الله تعالى آدم عليـــه السلام وهو فى الجنـــة مذكرا اياه بما هو فيه من نعيم ، ومحذرا له من الوقوع فى شرك الشيطان الذى يريد أن يخرجه من الجنـــة ليهبط الى حياة الأرض التى سيشقى فيها بالسعى والعمل المتواصل لاشباع دوافعه الفسيولوجية • قال تعالى :

« فقلنا يا آدم ان هـــذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة

---

(١٩) **المرجع الســـابق** ، ص ٢٥ ــ ٢٧ •

فتشقى . ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظما فيها ولا تضحى. فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شـــجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » . (طه : ١١٧ — ١٢١)

ففى هـــذه الآيات اشـــارة الى ثلاثة دوافع هامة من دوافع حفظ الذات وهى دوافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة المفرطة . كمـــا تشير هـــذه الآيات أيضا الى دافع حب البقاء ودافع التملك . وتعمل دوافع حفظ الذات فى خدمة دافع حب البقاء ، فهى باشباعها حاجات الجسم الفسيولوجية انما تعمل على بقاء الفرد واستمرار حياته . وقد كان دافع حب البقاء ودافع حب التملك مدخل الشيطان الى نفس آدم فوسوس له **« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »** ، فنسى آدم ما حذره الله تعـــالى منه وعصى أمر ربه فأكل من الشجرة ، ثم ندم على ما فعل .

وتشير بعض آيات القرآن الى أهمية كل من دافع الجوع وانفعال الخوف فى حياة الانسان . فكل منهما يلعب دورا هاما فى حياة الانسان .. فهو يعمل من أجل الحصول على القوت ثم يعمل على تأمين حياته من أحداث المستقبل وعاديات الزمان ومصائب الدهر . ولذلك فقد ذكرت بعض آيات القرآن الكريم كلا من الجوع والخوف كعاملين لهما أثرهما الخطير فى حياة الانسان . قال تعالى :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » . (البقرة : ١٥٥)

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجـــوع والخوف بمـــا كانوا يصنعون » . (النحل : ١١٢)

« فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جـــوع وآمنهم من خوف » . (قريش : ٣ ، ٤)

وفى الحيـــاة الدنيا حيث يشقى الانسان ويكدح فى سبيل الحصول على رزقه وفى القيام بواجباته والوفاء بالتزاماته المختلفة ، فانه يشعر بالتعب والاعياء ويحتاج الى الراحة والنوم كى يستعيد حيويته ونشاطه ، ويصبح قادرا على الاستمرار فى القيام بواجباته وتحمل مسئوليات المعيشة • وفى هذا المعنى قال الله تعالى :

« ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » • (الروم : ٢٣)

« هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » • (يونس : ٦٧)

« وجعلنا نومكم سباتا • وجعلنا الليل لباسا • وجعلنا النهـــار معاشـــا » • (النبأ : ٩ ــ ١١)

فاذا كان النهار مستمرا لا نهاية له ، ولا يكون هنـــاك ليل يسكن فيه الانسان ليرتاح من العناء والتعب وينام ، فهل يستطيع الانسان أن يعيش حياة هانئة هادئة خالية من العناء والشقاء ؟ ان فى ذلك دليلا على فضل الله تعالى ونعمته على الانسان ، بأن جعل النهار والليـــل متعاقبين على الدوام ، وبأن أودع فى الانسان دافع التعب الذى يحفزه الى النوم والراحة حتى يسترد نشاطه وحيويته •

* * *

٢ ــ دوافع بقاء النوع :

وكما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوجد فى طبيعة تكوين الانســـان دوافع فطرية تدفعه الى أنواع السلوك اللازمة لحفظ الذات ، فقد اقتضت حكمته كذلك أن يوجد فى طبيعة تكوين الانسان دافعين فسيولوجيين يدفعانه الى القيام بنوعين هامين من السلوك يتوقف عليهما بقاء النوع • هذان الدافعان هما الدافع الجنسى ، ودافع الأمومة[٢٠] •

---

(٢٠) **المرجع الســـابق** ، ص ٣٤ .

فالدافع الجنسى يقوم بوظيفة هامة هى التناسل لبقاء النوع • وعن طريق الدافع الجنسى تتكون الأسرة ، ومن هـذه الأسر تتكون المجتمعات والشـعوب ، فتعمر الأرض ، وتزدهر الحضارة • والدافع الجنسى أساس تكوين الأسرة حيث يسكن كل زوج الى زوجه فيشعر بالراحة والطمأنينة ، وتنشأ بينهما عواطف المحبة والمودة والرحمة ، مما يؤدى الى استمرار الحياة الزوجية فى وفاق وتعاون ، مما يهيىء المنـاخ المناسب لتنشـئة الأطفـال ورعايتهم وتكوين شـخصياتهم تكوينا سليما •

وقد أشـار القرآن الكريم الى ذلك فى آيات عديدة نذكر منها :

« يا أيهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » •
(الحجرات : ١٣)

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات » • (النحل : ٧٢)

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساطون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » • (النساء : ١)

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •
(الروم : ٢١)

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها »•
(الأعراف : ١٨٩)

وشاءت حكمة الخالق سـبحانه وتعالى أن يوجد أيضا فى طبيعة تكوين الأم دافعا فطريا يهيؤها للقيام برسالتها الهامة فى الانجاب لبقاء النوع • وقد أشار القرآن الكريم الى ما تتحمله الأم من عناء الحمل والولادة ، ورعاية الطفل والحنو عليـه حتى ينمو ويصبح قادرا على

العناية بنفسه ، كما يصف عواطف الأم ، وحبها لأولادها ، ولهفتها عليهم ، وحزنها لبعدهم عنها ، وفرحتها لقربهم منها :

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » . (الأحقاف : ١٥)

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » . (لقمان : ١٤)

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » . (القصص : ١٠)

« فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن » ..

(القصص : ١٣)

* * *

● الدوافع النفسية :

يذهب معظم علماء النفس المحدثين الى أن الدوافع النفسية هى فى غالبيتها مكتسبة وليست فطرية ، نتيجة تفاعلها مع خبرات الفرد وعوامل البيئة والثقافة التى يعيش فيها وتؤثر على تنشئته الاجتماعية . وهم لا ينكرون وجود عناصر فطرية فيها . وقام « مازلو » باقتراح تصنيف جديد للدوافع يشمل « الدوافع الروحية » .. فقال بوجود نوعين من الدوافع أو الحاجات : حاجات أساسية ، وحاجات روحية . فالحاجات الأساسية هى التى سبق مناقشتها ، وتشمل الحاجات الروحية : العدل ، والخير ، والجمال ، والاتحاد ، والنظام . ويرى « مازلو » أن حاجات الانسان الروحية هى حاجات فطرية يتوقف على اشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضجه .

ويرى « مازلو » أن للانسان طبيعة خيرة في جوهرها ، وليست شريرة على الاطلاق . ان الشخصية تتفتح خلال النضج ويكشف الامكان الخير للانسان عن نفسه بصورة أكثر وضوحا . وعندما يصبح

الانسان عصابيا أو شريرا أو بائسا ، فالسبب فى ذلك أن البيئة قد جعلته كذلك بسبب الجهل والمرض الاجتماعى • ان الانسان الخير يصبح شريرا لأن البيئة شريرة ، وان كان بعض الناس يظلون طيبين على الرغم من تأثير البيئة المفسد • ويمكن للبيئة أن تقوم بدور فعال تتساعد الانسان فى محاولاته لتحقيق ذاته[٢١] •

ولم يهتم علماء النفس المحدثون بدراسة الجانب الروحى من الانسان والحاجات الانسانية السامية التى تنبعث منه ، والتى هى أهم وأرقى الحاجات الانسانية باعتبارها أهم ما يميز الانسان عن غيره من الكائنات • ان التزام علماء النفس المحدثين بتطبيق المنهج العلمى المستخدم فى العلوم الطبيعية على دراسة الانسان دفعهم الى حصر انتباههم فى دراسة جوانب السلوك الانسانى التى يمكن أن تخضع للملاحظة المعملية وللبحث التجريبى ، وجعلهم يتجنبون البحث فى نواحى السلوك الانسانى المتعلقة بالنواحى الروحية فى الانسان • وبدلا من محاولة الكشف عن وسائل جديدة أو ابتكار مناهج حديثة تصلح لبحث هذه النواحى الروحية فى الانسان ، فقد أغفلوا دراستها كلية[٢٢] •

ولقد انتقد « اريك فروم » علم النفس الحديث لاهتمامه فى أغلب الأحيان بدراسة نواح سطحية من سلوك الانسان ، واغفاله دراسة مشكلات الانسان الهامة وقيمه العليا وجوانبه الروحية • ويشير « فروم » الى أن الاحصاءات تدل على أن أكثر البلدان الأوروبية ديمقراطية وأمنا ورفاهية ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى أكثر بلدان العالم انتعاشا من الناحية الاقتصادية ، هى البلاد التى تزداد فيها نسبة الاضطراب العقلى • فكلما تقدمت البلاد اجتماعيا واقتصاديا ،

---

(٢١) هول ولندزى ، **نظريات الشخصية** ، ترجمة فرج احمد فرج وآخرين . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١) ، ص ٤٢٤ .

(٢٢) محمد عثمان نجاتى ، **مرجع سابق** ، ص ٣٨ — ٣٩ .

وتوفرت فيها أسباب الراحة ، واستقر فيها الأمن والحكم الديمقراطى ، ازداد فيها ميزان العقل اختلالا ! ويتساءل « فروم » : « ألا يمكن أن يكون فى أسلوب حياتنا أمر مختل من أساسه ، وأن تكون الأغراض التى نهدف الى تحقيقها فاسدة فى صميمها ؟ » .. ربما كان رغد العيش مما يفى بحاجات الانسان المادية ، ولكنه يبعث فى نفوسنا الملل ، فيدفع الانسان الى ادمان الشراب والى الانتحار للتخلص من حالة الضجر التى لا تطاق . ان الاحصاءات تدلنا على أن الانسان لا يعيش على الخبز وحده ، وأن المدنية تقصر عن بث الطمأنينة فى النفوس ، ولا تفى ببعض حاجات الانسان العميقة الخفية . وان كان الأمر كذلك فما عسى أن تكون هذه الحاجات[٢٣] ؟

ان الحاجات الروحية هى الأساس ، وينبغى أن يهتم علم النفس المعاصر بدراسة القيم الروحية وترسيخها وتعميقها فى نفوس البشر ووضع أسس للأخلاقيات الانسانية . ان المعايير الأخلاقية ترتكز الى الصفات الفطرية فى الانسان ، ومن شأن أية مخالفة لهذه المعايير الخلقية أن ينشأ عنها اضطرابات عقلية وانفعالية[٢٤] .

وسنناقش الآن باختصار أهم الدوافع النفسية .

١ ــ دافع التملك :

ان دافع التملك من الدوافع النفسية التى يتعلمها الانسان أثناء تنشئته الاجتماعية . فهو يتعلم منذ طفولته أن يتملك ويحافظ على ألعابه وأدواته ولا يسمح لغيره من الأطفال أن يأخذها منه ، ثم يتطور حبه للتملك من خلال خبراته الشخصية فى مراحل نموه المختلفة ويحاول تملك المال والعقارات والممتلكات التى تشبع حاجته الى الأمن ــ أى

---

(٢٣) ايريك فروم ، **المجتمع السليم** ، ترجمة محمود محمود . (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠) ، ص ١٠ ــ ١١ .

(٢٤) Fromm, E.; **Man for Himself ; An Inquiry into the Psychology of Ethics** (New - York : Rinehart, 1947, pp. 6-7).

تأمين مستقبله • ونراه يفضل العمل الثابت ذا الدخل المستقر الذى يؤمن مستقبله •

وللمال أهميته فى اشباع حاجات الانسان ، ويمكن ترتيب هذا الاشباع على النحو الآتى :

ـ ضروريات الحياة : كالطعام والمسكن والملبس •

ـ ضروريات الصحة والتعليم •

ـ كماليات الحياة (ومعظمها حاجات مكتسبة) •

ـ الحصول على المركز الاجتماعى والمكانة والنفوذ • وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من المواضع الى دافع التملك :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » • (آل عمران : ١٤)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » • (الكهف : ٤٦)

« وتحبون المال حبا جما » • (الفجر : ٢٠)

« ويل لكل همزة لمزة • الذى جمع مالا وعدده • يحسب أن ماله أخلده » • (الهمزة : ١ ـ ٣)

« وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » •
(الاسراء : ٦)

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » • (الحديد : ٢٠)

* * *

٢ ـ دافع التنافس :

التنافس من الدوافع النفسية المكتسبة التى يتعلمها الانسان من البيئة والثقافة التى ينشأ فيها • وقد يتعلم الفرد خلال نشأته التنافس الاقتصادى ، أو التنافس العلمى والثقافى ، أو التنافس الاجتماعى ،

أو غير ذلك من أنواع التنافس السائدة فى مختلف الثقافات • وقد حث القرآن الكريم على تنافس الناس فى تقوى الله ، والعمل الصالح ، والتمسك بالقيم والمبادىء الانسانية ، واتباع المنهج الربانى فى علاقاتهم بالخالق سبحانه وتعالى أو فى علاقاتهم بالآخرين حتى يحظوا بمغفرة الله ورضوانه • قال تعالى :

« ان الأبرار لفى نعيم • على الأرائك ينظرون • تعرف فى وجوههم نضرة النعيم • يسقون من رحيق مختوم • ختامه مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » • (المطففين : ٢٢ ــ ٢٦)

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات » ••

(البقرة : ١٤٨)

« سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » • (الحديد : ٢١)

« •• فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » • (المائدة : ٤٨)

* * *

٣ ــ دافع الانجاز :

تتمثل مشكلة « الدافعية للعمل والانجاز » فى أن الانسان لا يعمل بكل طاقاته ، فهو يميل غالبا الى أن يبذل مجهودا أقل مما يستطيع أن يبذله ، ونجد أن انتاجه لا يتكافأ مع قدراته وامكاناته •

ولقد كان «هوايت»[٢٥] يرى أن من أسس الدافعية أن يهتم الانسان بمعرفة ما يدور حوله فى العالم وأن يحصل منه على ما يريد ، ولاحظ أن الناس يرغبون فى فهم بيئتهم الطبيعية وكذا بيئتهم الاجتماعية

(٢٥) White , R.; « Motivation Reconsidered : the Concept of Competence . » **Psychological Review** 66,5,1959.

والتعامل معها • وبمعنى آخر ، فانهم يودون أن تتاح لهم المقدرة على جعل الأشـياء تحدث ، أى يبتدعوا الأحداث بدلا من مجرد انتظارها بسلبية • وقد عبر « هوايت » عن هـذه الرغبة فى الانشاء والتكوين والابداع « بدافع الجدارة » (الأهلية) • ويرى أنه يمكن ملاحظة هذا الدافع فى الطفل الرضيع فى شـكل المحاولة العشوائية للامسـاك بالأشـياء والحركة الدائبة ومحاولة الوصـول الى ما فى متناوله ، وفيما بعد ــ أى فى مراحل النمو ــ تتخذ شـكل البحث والتنقيب والفك والتركيب وما أشـبه • وفى مرحلة الرشد يميل دافع الجدارة الى التعبير عن نفسه فى شكل الرغبة فى السيطرة على العمل والنمو المهنى •

ويتوافر لدى كل شخص « دافع الانجاز » بدرجة ما ، ولكن هناك بعض الناس نجدهم أكثر تهيؤا باستمرار للانجـاز عن غيرهم • ان معظم الناس مستعدون لبذل المزيد من الجهد فى أعمالهم اذا ما واجهوا تحديات لتحقيق الانجاز المنشود فى مواجهة أسباب قوية أو مثيرات لبذل هذا الجهد ، وكلما كان دافع الانجاز قويا فان الاحتمال يزداد بأن يفرض الشخص على نفسه الكثير من الالتزامات • واننا نجد الشخص المتوفر لديه دافع الانجـاز القوى لا يتوقع أية اثابة ، اذ يكفيه الانجاز فى حـد ذاته •• فهو يجد المتعة والسعادة فى كسب الموقف وتحدى المواقف الصـعبة(٢٦) •

وقد حث القرآن الكريم على العمل والانجاز فى مواقف كثيرة ، قال تعـالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » •

(التوبة : ١٠٥)

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عمـلا » •

(الكهف : ٣٠)

---

(٢٦) Mc Clelland, D.; **The Achievement Motive.** (New-York : Appleton Century - Crofts, 1953) .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . (النحل : ٩٧)

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » . (الأحقاف : ١٩)

« .. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » . (يس : ٣٥)

* * *

● **ثالثا ــ الاستبصار والالهام :**

يقصد بالاستبصار مدى قدرة الشخص على أن يفهم نفسه ، ويدرك نواحى القوة والقصور فى ذاته ومكونات شخصيته ، على أن يتقبل ذاته على ما هى عليه . ولا يشترط الاستبصار فهم الفرد لذاته عقليا فقط ، بل يشترط أن تتغير وجهة نظره نحو نفسه ومشاعره نحو ذاته .. فالفهم هنا أساسه العقل والشعور الوجدانى ، والتغيير هو تغيير الاتجاهات والكشف عن العناصر النفسية الايجابية واعادة تنظيمها بما يساعد الشخص على تحقيق التكيف والتوافق . ويؤدى الاستبصار فى هذه الحالة الى تغيير وجهة نظر الفرد نحو نفسه ونحو العالم المحيط به[٢٧] .

ولقد فرق « الغزالى » بين نوعين من الادراك الانسانى هما[٢٨] :

١ ــ الادراك بالتعلم والاكتساب ، أى عن طريق التعلم الانسانى .

٢ ــ الكشف والالهام ، أى طريق التعليم الربانى .

أما التعلم الانسانى ، فهو الذى يكتسب عن طريق الاستدلال والتجربة والاستنباط .

---

(٢٧) سيد عبد الحميد مرسى ، **الارشاد النفسي والتوجيه التربوى والمهنى** . ص ١٢٩ .

(٢٨) عبد الكريم العثمان ، **الدراسات النفسية عند المسلمين** ، ص ٣٥٨ .

وأما طريق الكشف ، فهو طريق العلم اللدنى — الربانى — الذى لا يحصل بالاكتساب ، وانما يهجم على القلب من حيث لا يدرى ، ولذلك يسمى الهاما أو وحيا حسبما تكون طريقة ايصال العلوم معروفة أو مجهولة .

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » ..

(الأنعام : ١٢٥)

ان الانسان يستطيع اذا رفع حجاب القلب بالتصفية والتزكية أن يتلقى النفحات الالهية :

« قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

(الشمس : ٩ ، ١٠)

ولقد أورد « الغزالى » عددا من الشواهد على صحة الالهام نعرض أهمها فيما يلى[٣٩] :

١ — يذكر « الغزالى » فى هذا المجال الآيات الآتية :

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » .. (فاطر : ٢)

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. (العنكبوت : ٦٩)

« .. ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » .. (الطلاق : ٢ ، ٣)

ويعلق على هذه الآية بأن المخرج يكون من الاشكالات والشبه ، وأن المقصود من **« ويرزقه من حيث لا يحتسب »** أنه يعلمه علما من غير تعلم ويصطفيه من غير تجربة .

« يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ..

(الأنفال : ٢٩)

ويعلق « الغزالى » على هذه الآية بقوله : يجعل لكم نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج بواسطته من الشبهات .

« .. وعلمناه من لدنا علما » . (الكهف : ٦٥)

والمقصود بالعلم اللدنى ذلك الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج .

---

(٣٩) **المرجع السابق** ، ص ٣٦٣ — ٣٦٥ .

ومن أهم الأدلة على وجود الالهام ما فطر الله عليـــه النفوس من الصلة بالربوبية ، ويشرح الغزالى ذلك على النحو التالى :

١ ــ جميع النفوس أهل فى الأصل للمعرفة ، قادرة على تحقيقها ، لأنها كلها بقوة طهارتها الأصلية وصفاتها أهل لاشراق النفس الكلية فيها ، ومستعدة لقبول الصورة المعقولة عنها • فكل مولود يولد على الفطرة •• والعلوم مركوزة فى النفوس بالقوة •

٢ ــ رحمة الله مبذولة بحكم الجود والكرم من الله ، وغير مضنون بها على أحد ، ويتم ذلك عن طريق النفس الكلية لأن العلوم كلها فى جوهر هـــذه النفس المتصلة بالعقل الأول •

٣ ــ هنالك نفوس بقيت على طهارتها الأصلية ، وهى النفوس النبوية القابلة للوحى والتأييد ، ولذلك يقبل الله عليها اقبالا كليا •

٤ ــ أما باقى النفوس فهى على درجات من حيث البقاء على نقائها الأصلى ، ويكون نقصانها لأسباب منها :

ــ نقصان فى ذاتها كنقصان قلب الصبى •

ــ كدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على القلب من الشهوات فيمنع ظهور الحق فيه لظلمته •

ــ عدول القلب عن الجهة المطلوبة التى عنها تصدر الحقيقة •

ــ حجاب التقليد والتعصب للمذاهب[٣٠] •

فالعلوم اللدنية لم تحجب عن القلوب لبخل وقع من جهة المنعم ، ولكن لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب ، لذلك فان الانســـان يستطيع اذا رفع حجاب القلب بالتصفية والتزكية أن يتلقى النفحات الالهية :

« قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها » •

(الشمس : ٩ ، ١٠)

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » •

(الأنعام : ١٢٥)

---

(٣٠) الغزالى ، **احياء علوم الدين** ، ٣ : ١٣ .

ان قدرة العقل الانسانى على معرفة الحقائق والتحصيل العلمى محدودة ، فهو لا يستطيع أن يحيط أو يلم بجميع الحقائق الكونية ، كما أنه عاجز عن أن يصل بجهوده الذاتية الى معرفة الحقائق الغيبية[٣١] .

« .. وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . (الاسراء : ٨٥)

وفضلا عن ذلك ، فان العقل الانسانى معرض لأخطاء التفكير ، كما أنه معرض للغفلة والنسيان . ولذلك كان الانسان فى حاجة من وقت لآخر الى هداية الله سبحانه وتعالى له وتوجيهه الى ما فيه خيره وصلاحه ، سواء عن طريق الأنبياء والرسل ، أو عن طريق الالهام والرؤيا . ولقد كانت مهمة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى عبر عصور التاريخ المختلفة هى هداية الناس وتعليمهم شعائر الدين وما فيه خير البشرية .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ..

(البقرة : ٢١٣)

« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

(النحل : ٣٦)

والالهام هو نوع من العلم اللدنى الذى يفيض الله سبحانه وتعالى به على الانسان ، ويلقيه فى قلبه ، فتنكشف له بعض الأسرار ، وتتضح له بعض الحقائق . ولقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى العلم اللدنى ــ العلم الربانى الذى يصل لصاحبه عن طريق الالهام ــ الذى أفاض الله تعالى به على أنبيائه ورسله . ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن الكريم فى سورة الأنبياء عن داوود وسليمان عليهما السلام حينما قاما بالتحكيم بين رجلين أحدهما صاحب حرث اشتكى بأن غنم الثانى قد رعت فيه وأفسدته . فحكم داوود عليه السلام لصاحب الحرث برقاب الغنم . وألهم الله تعالى سليمان عليه السلام بالحكم لصاحب

---

(٣١) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** ، ف ٦ .

الحرث بالانتفاع بدر الغنم ونسلها وصوفها الى أن يعود الحرث كما كان باصلاح صاحب الغنم لها فيردها اليه • وقد رأى داوود رجاحة رأى سليمان فرجع اليه • قال تعالى :

« وداوود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين • ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما » ••

(الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩)

وقال تعالى عن داوود عليـــه السلام :

« •• وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » ••

(البقرة : ٢٥١)

وعلم الله تعالى يوسف عليـــه السلام عن طريق الالهام تأويل الأحلام والرؤى :

« •• وكذلك مكنـــا ليوســـف فى الأرض ولنعلمـــه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون • ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين » •

(يوسف : ٢١ ، ٢٢)

ومن الأمثلة البارزة فى القرآن الكريم عن العلم اللدنى ما جاء فى سورة الكهف عن العبد الصالح الذى طلب منه موسى عليه السلام أن يرافقه ليتعلم منه :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما • قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » •

(الكهف ٦٥ ، ٦٦)

ومع أن موسى كان نبيا ورسولا الا أنه لم يكن يعلم ما خص الله تعالى به العبد الصالح من علم لدنى كشف له به من أسرار الغيب ما لم يكن يعلم موسى عليـــه السلام • فقد علم العبد الصالح من الله تعالى أن هناك ملكا يتعقب السفن ويغتصبها ، ولذلك خرق سفينة يملكها بعض الفقراء والمساكين ليعيبها وينجيها من الملك الظالم • وعلم أيضا أن الغلام الذى قتله سيرهق والديه الصالحين فأراد الله تعالى أن يبدلهما

عنه غلاما خيرا منه • كما علم أيضا أنه يوجد تحت الجدار الذى سينقض كنز لغلامين فقيرين فى المدينة كان والدهما صالحا ، فأقامه ليحفظه لهما حتى يكبرا ويستخرجا كنزهما • وقال العبد الصالح أن ما فعله لم يكن عن أمره ، وانما كان عن أمر الله تعالى :

« •• وما فعلته عن أمرى •• » (الكهف : ٨٢)

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الايحاء أو الالهام الالهى يمكن أن يحدث لغير الأنبياء والرسل • فقد حدث ذلك لأم موسى :

فلقد كان الفرعون الطاغية قد تكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعا ، كل طائفة فى شأن من شئونه • ووقع أشد الاضطهاد والبغى على بنى اسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه • وأحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه من وجود هذه الطائفة فى مصر ، وابتكر طريقة خبيثة للقضاء على الخطر الذى يتوقعه من هذه الطائفة ، وذلك بتذبيح الذكور من أولادهم عند ولادتهم ، حتى لا يتكاثر عدد الرجال فيهم • ولقد ولد موسى عليه السلام فى ظل تلك الأوضاع القاسية •• فالخطر محدق به ، والموت يترقبه • وهاهى ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه الى الجلادين • وهاهى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته وعن اخفائه •• وهنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى فى روعها كيف تعمل ، وتوحى اليها بالتصرف :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » •
(القصص : ٧)

ويشير القرآن الكريم أيضا الى أن الايمان والتقوى والاخلاص فى عبادة الله ، وما يؤدى اليه ذلك من صفاء القلب وشفافية الروح ، يجعل الانسان مهيأ لتلقى الايحاء والالهام من الله تعالى ليهديه الى طريق الخير والحق ، وليرشده الى سبل الفضيلة والهداية :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » •

(محمد : ١٧)

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين » •

(العنكبوت : ٦٩)

ولا يتعرض علماء النفس المحدثون لدراسة الالهام الالهى ، ولكنهم حين يدرسون التفكير المبدع فانهم يطلقون مصطلح « الالهام » أو « الاشراق » على ظهور الأفكار المبدعة التى يبدو أنها تظهر فجأة لبعض الناس أثناء تفكيرهم فى حل بعض المشكلات • وهم يفسرون هذا النوع من الالهام بأنه ينبثق من عقل المفكر ذاته ، وهو ليس شيئا يفيض عليه من مصدر خارجى • فحينما يفكر الانسان فى مشكلة ما مدة طويلة دون أن يهتدى الى حلها ، فانه يتركها عادة لفترة من الزمن يريح فيها ذهنه ثم يعود الى التفكير فيها فيما بعد • ويحدث خلال هذه الفترة من الراحة — التى يسميها علماء النفس « بفترة الحضانة » — تغيرات هامة فى عملية التفكير •• فأولا ، يتخلص التفكير من بعض الشوائب التى كانت تعوقه عن الوصول الى الحل • وثانيا ، يرتاح الذهن من الاجهاد الذى يصيبه نتيجة مواصلة التفكير فى المشكلة ، بحيث اذا عاد الى التفكير فيها فيما بعد يكون أكثر صفاء • وثالثا ، يحدث نوع من التنظيم فى معلومات الانسان مما يؤدى الى اتضاح بعض العلاقات التى لم تكن واضحة من قبل ، وظهور بعض الأفكار الجديدة ، والاهتداء الى حل للمشكلة •

وليس هناك فى الواقع تعارض بين التفسير العلمى للالهام الذى يذهب اليه علماء النفس المحدثون فى تفسيرهم للتفكير المبدع ، وبين التفسير الدينى له • ان علماء النفس المحدثين يتوقفون فى تفسيرهم عند العمليات الفسيولوجية التى تتم فى المخ ، والعمليات السيكولوجية المصاحبة لها • ولكن رجل الدين ، مع تسليمه بالعمليات الفسيولوجية التى تتم فى المخ والعمليات السيكولوجية المصاحبة لها ، الا أنه يتجاوز هذا المستوى من التفسير ، ويذهب الى أن الله سبحانه وتعالى المتصرف فى كل شىء فى الكون والمدبر لأموره ، قد تقتضى مشيئته

أن يوجه عملية التفكير لدى بعض الناس على نحو ما بحيث يهديهم الى الكشف عن بعض الحقائق التى يريد سبحانه أن يلهمهم بها ، فتتضح لهم هـذه الحقائق كأنما أشرقت فى عقولهم فجأة • وقد تقتضى مشيئة الله تعالى أن يحدث الالهام أيضا فى غير أوقات التفكير المبدع ، بأن يفيض الله تعالى فى أى وقت يشاء على أنبيائه ورسله وغيرهم من عباده بما يشاء من ايحاءات والهامات •

وقد قام علماء النفس المسلمون الأقدمون بتفسير الالهام تفسيرا يتفق مع مفهوم الدين له ، مع ما جاء فى القرآن عنه • فالغزالى ، مثلا ، يضيف الى آرائه السابقة عن الايحاء والالهام أن الدليل القاطع — فى نظره — على صحة الالهام ، عجائب الرؤيا الصادقة فانه ينكشف بها الغيب ، واذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل فى اليقظة « فلم يفارق النوم اليقظة الا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ عاقل لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه » [٣٢] ويتفق الغزالى هنا مع ابن سـينا الذى يفسر الوحى أو الالهام الذى يحدث لبعض الناس فى صورة رؤيا ، على أنه ناشىء عن اتصال النفس بالملكوت الأعلى ، وتلقى الوحى أو الالهام عنه[٣٣] • والرؤيا التى وردت فى القرآن الكريم هى الرؤيا الصادقة التى يلقى فيها الله سـبحانه وتعالى الى أنبيائه ورسله وغيرهم من الناس بوحى أو الهام معين ، أو يخبرهم بأمر سيحدث فى المستقبل ومن أمثلة ذلك رؤيا يوسف عليه السلام :

« اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » • (يوسف : ٤)

وقد تحققت هـذه الرؤيا فيما بعد حينما استدعى يوسف عليـه السلام أبويه واخوته ، فلما دخلوا اليه سجدوا له سجود تحية واكبار •

---

(٣٢) الغزالى ، **احياء علوم الدين** ، ٣ : ١٠ .

(٣٣) محمد عثمان نجاتى ، **الادراك الحسى عنـد ابن سـينا بحث فى علم النفس عند العرب** (ط ٣) . (بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠) ، ص ٢١٦ .

وذكر القرآن أيضا الرؤيا التى رآها كل من الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام ، وقيامه بتفسيرهما[٣٤] . كما ذكر الرؤيا التى رأى فيها ملك مصر « **سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** » (يوسف : ٤٣) وتفسير يوسف عليه السلام لها [٣٥] .

كما ورد ذكر الرؤيا التى رأى فيها رسول الله ﷺ فى العام الذى سار فيه الى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت العتيق :

« **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** » ..

(الفتح : ٢٧)

وفى خضم هذه المناقشة للايحاء والالهام نذكر بعض الآيات التى ورد بها الايحاء لنبى الله موسى عليه السلام :

« **وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم** » ..

(الأعراف : ١٦٠)

« **وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك ، فاذا هى تلقف ما يأفكون** » .

(الأعراف : ١١٧)

« **وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون** » .

(الشعراء : ٥٢)

* * *

● **رابعا ــ الادراك :**

يتحدد سلوك الفرد جزئيا وفقا للطريقة التى يدرك بها العالم المحيط به والمكون من أشخاص عديدين وأشياء كثيرة . ولاشك فى أن

---

(٣٤) يوسف : ٣٦ ، ٤١ . (٣٥) يوسف : ٤٧ ــ ٤٩ .

الأفراد يختلفون فيما بينهم فى كيفية ادراكهم للأمور والأشخاص الذين من حولهم ، أى أن لكل فرد عالمه الخاص الذى يحدده فى ذهنه بأسلوب متميز • وهناك عدة عوامل تتفاعل فى تحديد مدركات الفرد وتتلخص فى الآتى :

١ ــ **البيئة المادية والاجتماعية للفرد** :وهى البيئة التى يعيش فيها الفرد وتساعد على تحديد مدركات الفرد • فلا شك فى أن الشخص الذى يعيش فى الريف أو البادية يختلف فى ادراكه عن ذلك الذى يعيش فى بيئة مدنية بالحضر ، اذ أن كلا منهما يتأثر بالبيئة والثقافة التى يعيش فيها •

٢ ــ **التركيب العضوى للفرد** : ان ما يراه الفرد فى الأشياء الخارجة عنه انما يتحدد بصفاته وخصائصه الفسيولوجية والعقلية كالذكاء والاستعدادات • فالشخص منخفض الذكاء يتميز بمستوى فكرى أقل تعقيدا وأقل تكاملا من ذلك الشخص مرتفع الذكاء •

٣ ــ **الحاجات والرغبات التى يسعى الفرد لتحقيقها** : ان لكل فرد حاجات أساسية سواء أكانت فسيولوجية أو نفسية / اجتماعية ، وكذا رغبات وطموحات يسعى لتحقيقها بجانب اشباع حاجاته الأساسية • وتسهم تلك الحاجات فى تحديد ادراكه للأمور والأشخاص وبالتالى تؤثر فى ســـلوكه •

٤ ــ **خبرات الفرد وتجاربه الســـابقة** : تتأثر مدركات الفرد وأساليب تفكيره بخبراته وتجاربه السابقة المختزنة فى ذاكرته • فهو يدرك الأمور من واقع هذه الخبرات التى مرت به ويتصرف وفقا لمـــا مر به من تجارب •

وعلى الرغم من الاختلافات الواضـــحة فى مدركات الأفراد على اختلافهم ، الا أن هناك بعض الأسس العامة والمشتركة فى ما يدركونه • فللأفراد جميعا نفس الجهاز والتركيب الفسيولوجى ، وقد يشتركون فى معظم حاجاتهم ورغباتهم والمواقف التى تواجههم ، خاصة فى البيئة

أو الثقافة الواحدة • وعلى ذلك قد نرى أن العالم الادراكى للأفراد فى ثقافة معينة يميل الى التشابه •

ولقد تطورت دراسة الادراك تطورا سريعا فى السنوات الأخيرة ، ووضعت عدة فروض أساسية تساعد على تفسير عملية الادراك وتأثيرها على السلوك الانسانى • وأهم هذه الفروض ما يأتى[٣٦] :

١ ــ ينظم الفرد مدركاته بطريقة اختيارية •

٢ ــ يميل الفرد الى تنظيم مدركاته فى مجموعات متناسقة •

٣ ــ تتحدد صفات أى جزء مما يدركه الفرد بخصائص مجموعة من المدركات التى تضم هذا الجزء •

٤ ــ ينشأ التغير فى المدركات والأفكار بسبب التغير فى المعلومات التى يحصل عليها الفرد وكذا التغير فى حاجاته •

٥ ــ يتأثر التغير فى المدركات جزئيا بخصائص المدركات الحالية •

٦ ــ يتأثر تغيير المدركات بصفات الفرد الشخصية •

ولقد أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يزود الكائن الحى بكل الامكانات والوظائف الضرورية للحياة ، فزوده بأجهزة يدرك بها العالم الخارجى وما يدور حوله من أحداث ، كما يدرك بها عالمه الداخلى وما يحدث فيه من تغييرات • والادراك الحسى وظيفة هامة فى الحياة ، اذ فيه يدرك الكائن الحى ما يؤذيه فيتجنبه ، وما يفيده فيسعى اليه •

والادراك الحسى وظيفة يشترك فيها كل من الانسان والحيوان ، غير أن الخالق سبحانه وتعالى قد خص الانسان بوظيفة ادراكية أخرى هامة يتميز بها عن سائر الكائنات الأخرى ، ألا وهى العقل ، الذى من خلاله يستطيع الانسان أن يعلو بادراكه عن الأشياء المحسوسة •• فيفكر فى المعانى المجردة كالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحق والباطل ، والذى به يستطيع أن يستدل على المبادىء العامة من واقع

---

(٣٦) على السلمى ، **العلوم السلوكية فى التطبيق الادارى** • (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠) ، ص ١٢٩ •

الملاحظات والتجارب • فبالعقل ، مثلا ، يستطيع الانسان أن يستدل من بديع خلق الله تعالى للكون وللانسان ، على وجود الخالق وقدرته ومشيئته سبحانه وتعالى[٣٧] :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » • (فصلت : ٥٣)

واذا ما حاولنا أن نتناول الادراك الحسى فى القرآن ، تطالعنا آيات عديدة نذكر منها على سبيل المثال :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » • (النحل : ٧٨)

« وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » • (المؤمنون : ٧٨)

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » • (السجدة : ٩)

واكتفى القرآن الكريم بذكر السمع والبصر كأداتين من أدوات الاحساس ، وذلك لأهميتهما القصوى فى عملية الادراك الحسى ، كما أن فى ذكرهما ما يكفى للدلالة على أهمية جميع الحواس فى عملية الادراك الحسى • أما الأفئدة فهى هذه الخاصية التى صار بها الانسان انسانا ، وهى قوة الادراك والتمييز والمعرفة التى استخلف بها الانسان فى هذا الملك العريض ، والتى حمل بها الأمانة التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال •• أمانة الايمان الاختيارى ، والاهتداء الذاتى ، والاستقامة الارادية على منهج الله القويم • ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ولا مركزها ، فهى سر الله فى الانسان لم يعلمه أحد سواه[٣٨] •

ويأتى ذكر السمع فى القرآن قبل البصر فى كثير من الآيات ، وقد يبدو هذا لعدة اعتبارات • فأولا ، أن السمع أهم من البصر فى عملية

---

(٣٧) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** ، ص ١١٣ .
(٣٨) سيد قطب ، فى **ظلال القرآن** . ج ٦ : ص ٣٦٤٥ — ٣٦٤٦ .

الادراك الحسى والتحصيل والتعلم • فيستطيع الانسان اذا فقد بصره أن يتعلم اللغة ويحصل العلم والثقافة ، ولكنه اذا فقد سمعه تعذر عليه ذلك • ومما يدل على أهمية السمع فى الادراك وفى تعلم اللغة — وهى من أهم أدوات التفكير وتحصيل العلوم — أن القرآن ذكره وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينه وبين العقل[٣٩] :

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » •

(الملك : ١٠)

كما يذكر القرآن فى كثير من الآيات السمع بمعنى الفهم والتعقل :

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » •

(آل عمران : ١٩٣)

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به » ••

(الجن : ١٣)

« •• وتطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » •

(الأعراف : ١٠٠)

وثانيا ، أن حاسة السمع عقب الولادة مباشرة ، حيث يستطيع الوليد أن يسمع الأصوات عقب ولادته مباشرة ، بينما يحتاج الى فترة من الزمن كى يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح • وقد أوضحت البحوث أن الطفل حديث الولادة يستجيب للأصوات العالية ولا يستجيب للأصوات الخافتة ، كما أوضحت أن الصور لا تبدو فى عينى الطفل حديث الولادة واضحة حتى يبلغ الشهر السادس من عمره •

وثالثا ، أن حاسة السمع تؤدى وظيفتها باستمرار دون توقف ، بينما حاسة البصر قد تتوقف عن أداء وظيفتها اذا أغمض الانسان عينيه أو نام •

لقد فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر لأنه أول ما يؤدى وظيفته فى الدنيا ، ولأنه أداة الاستدعاء فى الآخرة ، لأن الأذن لا تنام أبدا •• واذا نام الانسان فان كل شىء يسكن فيه الا سمعه • هذا

---

(٣٩) محمد عثمان نجاتى ، **مرجع سابق** ، ص ١١٥ •

بالاضافة الى أن الأذن هى الصلة بين الانسان والدنيا .. فان الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال :

« فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً » .

(الكهف : ١١)

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أى ازعاج ، فالأذن هى التى تؤدى وظيفتها أولا ، وهى لا تنام ولا تغفل أبدا ، وهى الصلة بين الانسان والدنيا ، وأداة الاستدعاء فى الآخرة .. لذلك فضلها الله سبحانه وتعالى [٤٠] .

* * *

● **خامسا ــ محاسبة النفس :**

على الانسان أن يعرف نفسه على حقيقتها ، فما من خير يسعى مجاهدا لعمله الا وتنازعه نفسه فيه وتريد خلافه ، وما من شر يقبل الانسان عليه الا وكانت نفسه داعية اليه ، ولا ضاع منه خير الا وكان بسبب جنوحها وهواها ، ولا مال الى محظور أو مكروه الا من محبته لنفسه وخضوعه لها وجنوحه الى طاعتها وارضائها .

ومن صفات النفس أنها عندما ترضى ، تتصف بالعلم ، ورحابة الصدر ، وتحاول كظم الغيظ وتجنب الحمق .. ولكنها عندما تغضب تنسى حلمها ، وتتنكر لقولها ، فيظهر منها السفه والحمق والحقد وسوء الخلق [٤١] .

« ولسوف يعطيك ربك فترضى » . (الضحى : ٥)

« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية » . (الغاشية ٨ ، ٩)

« يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية » .

(الفجر : ٢٧ ، ٢٨)

---

(٤٠) محمد متولى الشعراوى ، **معجزة القرآن** : جـ ١ . (القاهرة : كتاب اليوم ، العدد ١٥٤ ، ١٩٧٩) ، ص ٩٥ ــ ٩٦ .

(٤١) حسن محمد الشرقاوى ، **نحو علم نفس اسلامى** . (الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦) ، ص ٢٣٣ .

« فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية » .

(القارعة : ٦ ، ٧)

« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ » ..

(آل عمران : ١٣٤)

« ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء » ..

(التوبة : ١٥)

فاذا حاسب الانسان نفسه على مذموم أفعالها ، وعرفها بحقيقة ريائها ، ووعظها للعمل على نسيانها ، وداوم على تأنيبهـا لاقتراف المخالفات التى تقودها الى الهلاك ، وذكرها بوعد الله ووعيده .. وعاون العقل الراجح فى هدايتها ، فزجرها وأيقظها من غفلتها ، وأوضح لها طريق الخير واليقين الذى لامراء فيه .. وأثبت لها الفؤاد بالبصيرة النافذة ذلك جميعا وتحققت منه ، وقهرها بالحجة الدامغة .. رجعت بعد طول عناد ومكابرة عن شهواتها ومطالبها الملحة .

ولكن النفس مع ذلك لا يؤمن جانبها ، حيث انها تتظاهر وتوافق العقل لفترة حتى تقوى عليه . وتلجأ الى حيل لا شعورية كالاسقاط والتبرير وما أشبه . وتلبس زى المتقين ، وتتستر خوف الافتضاح . فاذا حيل بينها وبين الشر تظاهرت بعمل الخير الى حين ، رغم أنهـا تميل الى الشر الباطن ، فهى أمارة بالسوء ، مخادعة مرائية ، ولا يوثق بوعودها ، فهى تريد الدنيا وان تظاهرت بحب الآخرة :

« واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » .

(المنافقون : ٤)

« واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

(البقرة : ١١ ، ١٢)

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى

قلبه وهو ألد الخصام • واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » •

(البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥)

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » •

(يوسف : ٥٣)

ان أفضل ما يفعله الانسان هو أن يفتش عن نفسه ، ويتهمها فيما يجهله عنها من غامض أمورها ومستور كيدها ، وتظاهر تقواها ، وتناقض أفعالها ، ولا ييأس من رحمة الله ، أو يقنط ويستسلم فينقطع عنه الرجاء •

ان الطريق الحق لمحاسبة النفس هو أن تخاصمها ، كما تخاصم عدوك الظالم البليغ الحجة ، المعتد بنفسه • وعليك ألا تصالحه حتى يرجع عن غيه بعد أن تكشف أمره ، فاذا كشفته فقد عرفته ، واذا عرفته انهارت حجته ، وفقد أسلحة الغواية واستسلم لك كلية[٤٢] •

* * *

(٤٢) **المرجع السابق** ، ص ٢٢٧ •